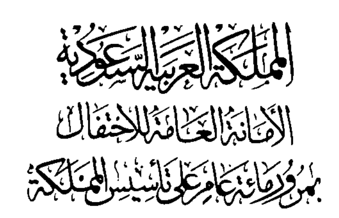
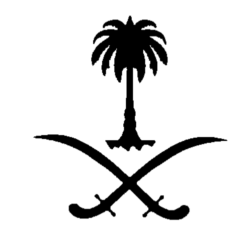






عرش الرحمن
وما ورد فيه من الآيات والأحاديث

تأليف
شيخ الإسلام ابن تيمية

ويليه مجموعة الرسائل والمسائل لشيخ الإسلام
وهي ثلاثة أقسام
الجزء الأول

هذا الكتاب سبق طبعه على نفقة صاحب الجلالة الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود
وأعيد طبعه بمناسبة الاحتفال بمرور مائة عام على تأسيس المملكة على نفقة خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز

١٤١٩ هـ - ١٩٩٩ م

ⓒ الأمانة العامة للاحتفال بمرور مائة عام على تأسيس المملكة العربية السعودية ، ١٤١٩ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

ابن تيمية ، أحمد بن عبد الحليم

عرش الرحمن وما ورد فيه من الآيات والأحاديث .ـ الرياض ،

٤٦٤ ص ؛ ١٧ × ٢٤ سم

ردمك ٨-٢-٠-٦٦٠-٩٩٦٠ (مجموعة)

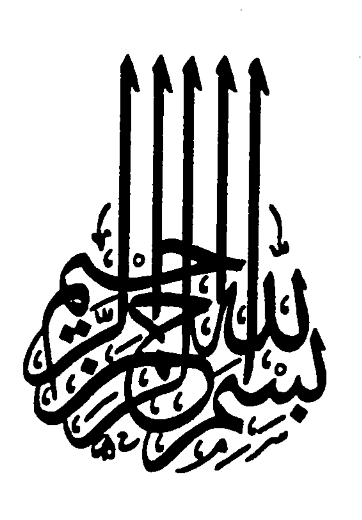
٦-٣-٠-٦٦٠-٩٩٦٠ (ج١)

١ - التوحيد ٢ - عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود ونشر الكتب

أ - العنوان

ديوي ٢٤١ ١٨/٣٨٣٧

رقم الإيداع : ٣٨٣٧ / ١٨
ردمك : ٨-٢-٠-٦٦٠-٩٩٦٠ (مجموعة) ٦-٣-٠-٦٦٠-٩٩٦٠ (ج١)





مُقَدِّمَة

الحمد للّه الذي أمرنا بشكر النِّعم، ووَعَد الشاكرين بمزيدٍ من فضله العَمِيم ، والصلاة والسلام على نبِّينا محمد وعلى آله وصحبه ، أما بعد ..

فإن الله - جلَّ وعلا - قد أكرمنا في هذه البلاد الطيبة بجمع كلمتنا تحت راية الإسلام الخالدة « لا إله إلا الله محمد رسول الله » ؛ فكلمة التوحيد هي الأساس الذي قامت عليه هذه البلاد ، واتخذتها شعاراً لها ومنهجاً لحياتها وأساساً لنظامها ، أكَّد ذلك الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود حين دخل مدينة الرياض في الخامس من شوال سنة ١٣١٩ هـ ؛ استمراراً للمنهج الذي سار عليه آباؤه وأجداده المستَمدِّ من كتاب الله وسنة رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

وقد جاءت فكرة الاحتفال بمناسبة مرور مائة عام على دخول الملك عبد العزيز مدينة الرياض ؛ وتأسيس المملكة العربية السعودية ، تأكيداً لاستمرار المنهج القويم الذي سارت عليه المملكة العربية السعودية والمبادىء السَّامية التي قامت عليها ؛ ورصداً لبعض الجهود المباركة التي قام بها المؤسِّس الملك عبد العزيز - رحمه الله - في سبيل توحيد المملكة عرفاناً لفضله ووفاءً بحقه وتسجيلاً لأبرز المكاسب والإنجازات الوطنية التي تحقَّقت في عهده وعهد أبنائه خلال المائة عام ، والتعريف بها للأجيال القادمة .

وما الأعمال العلمية التي تُصدرها الأمانة العامة للاحتفال بهذه المناسبة إلا شواهد صادقة على نهضة هذه البلاد الزاهرة في ظلّ دوحةِ علمٍ أصولها ثابتة وفروعها نابتة ، تَوَلَّى غرسها الملك المؤسِّس ، وتعهَّدها من بعده بَنُوهُ ؛ فواصلوا رعايتها حتى امتدَّ ظلُّها ، وزاد ثمرها ، فعمَّ البلاد خيرُها ، وانتفع بها الجميع .

وهذا الكتاب أحد الكتب التي سبق أن أمر جلالة الملك عبد العزيز - يرحمه الله - بطبعها ونشرها على نفقته الخاصة ممَّا يعطي دلالة واضحة على اهتمامه بالعلم ، وحرصه على نشره ، وتكريمه لأهله ، وعنايته بطلابه ، وقد أمر خادم الحرمين الشريفين - يحفظه الله - بإعادة طبع هذا الكتاب مع مجموعة الكتب التي سبق أن أمر بطبعها الملك عبد العزيز - رحمه الله - لنشرها ضمن فعاليَّات الاحتفال بهذه المناسبة المباركة ، ورأينا أن تكون هذه الطبعة مُشتملة على ما استُجِدَّ على بعض هذه الكتب من تحقيق أو تعليق أو تصحيح .

اللّهم إنا نشكرك ، ونتحدّث بعظيم نعمتك علينا ، وقد وعدت الشاكرين بالمزيد ؛ فأدمها نعمةً ؛ واحفظها من الزوال .

وصلّى الله وسلّم وبارك على نبِّينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

أمير منطقة الرياض

رئيس اللجنة العليا ورئيس اللجنة التحضيرية

للاحتفال بمرور مائة عام على تأسيس المملكة

سلمان بن عبد العزيز

عرش الرحمن

وما ورد فيه من الآيات والاحاديث

وكونه فوق العالم كله، ومعنى التوجه في الدعاء الى جهة العلو
وبطلان ماقيل من ان العرش هو الفلك التاسع عند علماء الهيئة اليونانية

تأليف

شيخ الاسلام ابن تيمية

قدس الله سره

طبع على نفقة صاحب الجلالة السعودية، ومحيي السنة المحمدية
الامام عبد العزيز آل سعود
ملك الحجاز ونجد وملحقاتها

ويليه مجموعة الرسائل والمسائل لشيخ الاسلام

وهى ثلاثة أقسام

مطبعة المنار بمصر



عرش الرحمن

وما ورد فيه من الآيات والأحاديث

وكونه فوق العالم كله ، ومعنى التوجه في الدعاء
إلى جهة العلو وبطلان ما قيل من أن العرش
هو الفلك التاسع عند علماء الهيئة اليونانية

تأليف

شيخ الإسلام ابن تيمية



بسم الله الرحمن الرحيم

{ سئل } شيخنا وسيدنا شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن تيمية أعاد الله تعالى من بركته آمين: ما تقول في العرش ، هل هو كري أم لا ؟ فإذا كان كرياً والله من ورائه محيط بائن عنه ، فما فائدة أن العبد يتوجه إلى الله حين دعائه وعبادته فيقصد العلو دون غيره؟ فلا فرق حينئذ وقت الدعاء بين قصد جهة العلو وغيرها من الجهات التي تحيط بالداعي ، ومع هذا نجد في قلوبنا قصداً بطلب العلو لا يلتفت يمينه ولا يساره ، فأخبرنا عن هذه الضرورة التي نجدها في قلوبنا وقد فطرنا عليها ، وابسطوا لنا الجواب في ذلك .

{ أجاب } رضي الله عنه :

الحمد لله رب العالمين ، الجواب عن هذا بثلاث مقامات:

(أحدها) أن لقائل أن يقول : لم يثبت بدليل يعتمد عليه أن العرش فلك من الأفلاك المستديرة الكرية الشكل لا بدليل شرعي ولا دليل عقلي ، وإنما ذكر طائفة من المتأخرين الذين نظروا في علم الهيئة وغيره من أجزاء الفلسفة فرأوا أن الأفلاك تسعة وأن التاسع -وهو الأطلس- محيط بها مستدير كاستدارتها ، وهو الذي يحركها الحركة الشرقية ، وإن كان لكل فلك حركة تخصه غير هذه الحركة العامة ، ثم سمعوا في أخبار الأنبياء ذكر عرش الله وذكر كرسيه وذكر السموات السبع ، فقالوا بطريق الظن: إن العرش هو الفلك التاسع ؛ لاعتقادهم أن ليس وراء ذلك التاسع شيء إما مطلقاً وإما إنه ليس وراءه مخلوق ، ثم إن منهم من رأى أن التاسع هو الذي

يحرك الأفلاك كلها فجعلوه مبدأ الحوادث ، وزعموا أن الله تعالى يحدث فيه ما يقدره في الأرض أو يحدثه في النفس التي زعموا أنها متعلقة به ، أو في العقل الذي زعموا أنه صدر عنه هذا الفلك ، وربما سمَّاه بعضهم الروح ، وربما جعل بعضهم ذلك النفس هو اللوح المحفوظ كما جعل العقل هو العلم ، وتارة يجعلون اللوح هو العقل الفعال العاشر الذي لفلك القمر والنفس المتعلقة به . وربما جعلوا ذلك بالنسبة إلى الحق كالدماغ بالنسبة إلى الإنسان يقدر فيه ما يفعله قبل أن يكون ، إلى غير ذلك من المقالات التي قد شرحناها وبينَّا فسادها في غير هذا الموضع . ومنهم من يدعي أنه علم ذلك بطريق الكشف والمشاهدة ويكون كاذباً فيما يدعيه ، وإنما أخذ ذلك عن هؤلاء المتفلسفة تقليداً لهم أو موافقة لهم على طرقهم الفاسدة ، كما فعل أصحاب رسائل إخوان الصفا وأمثالهم .

وقد ينتحل المرء في نفسه ما تقلده عن غيره فيظنه كشفاً كما ينتحل النصراني التثليث الذي يعتقده ، وقد يرى ذلك في منامه فيظنه كشفاً ، وإنما يخيل لما اعتقده[١] وكثر من أرباب الاعتقادات الفاسدة إذا ارتاضوا صقلت الرياضة نفوسهم فتتمثل لهم اعتقاداتهم فيظنونها كشفاً ، وقد بسطنا الكلام على هذا في غير هذا الموضع .

---

(١) لعل أصله : يخيل إليه ما اعتقده ، وأن بعض النصارى يرون في المنام وفي حال تغلب الخيال عند أولي المزاج العصبي في اليقظة السيد المسيح أو السيدة مريم عليهما السلام أو غيرهما من الحواريين ومن دونهم ، ويسمعون منهم ما يوافق عقائدهم كما يقع لكثير من المسلمين فيغترون بهذه الخيالات.

والمقصود هنا أن ما ذكروه من أن العرش هو الفلك التاسع قد يقال : إنه ليس لهم عليه دليل لا عقلي ولا شرعي ، أما العقلي فإن أئمة الفلسفة مصرحون بأنه لم يقم عندهم دليل على أن الأفلاك هي تسعة فقط ، بل يجوز أن تكون أكثر من ذلك ، ولكن دلتهم الحركات المختلفة والكسوفات ونحو ذلك على ما ذكروه . وما لم يكن لهم دليل على ثبوته فهم لا يعلمون لا ثبوته ولا انتفاءه .

مثال ذلك أنهم علموا أن هذا الكوكب تحت هذا بأن السفلي يكسف العلوي من غير عكس ، فاستدلوا بذلك على أنه من فلك فوقه ، كما استدلوا بالحركات المختلفة على أفلاك مختلفة ، حتى جعلوا في الفلك الواحد عدة أفلاك كفلك التدوير وغيره ، فأما ما كان موجوداً فوق هذا ولم يكن لهم ما يستدلون به على ثبوته فهم لا يعلمون نفيه ولا إثباته بطريقه . وكذلك قول القائل : إن حركة التاسع مبدأ الحوادث خطأ وضلال على أصولهم ، فإنهم يقولون : إن الثامن له حركة تخصه بما فيه من الثوابت ، ولتلك الحركة قطبان غير قطبي التاسع ، وكذلك السابع والسادس .

وإذا كان لكل فلك حركة تخصه والحركات المختلفة هي سبب الأشكال الحادثة المختلفة الفلكية ، وتلك الأشكال سبب الحوادث السفلية ؛ كانت حركة التاسع جزء السبب كحركته ، فالأشكال الحادثة في الفلك كمقارنة الكوكب للكوكب في درجة واحدة ومقابلته له إذا كان بينهما نصف الفلك ، وهو مائة وثمانون درجة ، وتثليثه إذا كان بينهما ثلث الفلك مائة وعشرون درجة ، وتربيعه له إذا كان بينهما ربعه تسعون درجة ، وتسديسه له إذا كان بينهما سدس الفلك ستون درجة ـ وأمثال ذلك من الأشكال ـ إنما حدثت بحركات

مختلفة ، وكل حركة ليست عن الأخرى ؛ إذ حركة الثامن التي تخصه ليست عن حركة التاسع وإن كان تابعاً له في الحركة الكلية كالإنسان المتحرك في السفينة إلى خلاف حركتها ، وكذلك حركة السابع التي تخصه ليست عن التاسع ولا عن الثامن ، وكذلك سائر الأفلاك فإن حركة كل واحد التي تخصه ليست عما فوقه من الأفلاك ، فكيف يجوز أن يجعل مبدأ الحوادث كلها مجرد حركة التاسع كما زعمه من ظن أنه العرش ؟ كيف والفلك التاسع عندهم بسيط متشابه الأجزاء لا اختلاف فيه أصلا ، فكيف يكون سبباً لأمور مختلفة لا باعتبار القوابل وأسباب أخر ؟ ولكن هم قوم ضالون يجعلونه مع هذا ثلثمائة وستين درجة ، ويجعلون لكل درجة من الأثر ما يخالف الأخرى لا باختلاف القوابل ، كمن يجيء إلى ماء واحد فيجعل لبعض أجزائه من الأثر ما يخالف الآخر ؛ لا بحسب القوابل بل يجعل أحد جزئيه مسخناً ، والآخر مبرداً ، والآخر مسعداً ، والآخر مشقيا ، وهذا مما يعلمون هم وكل عاقل أنه باطل وضلال ، وإذا كان هؤلاء ليس عندهم ما ينفي وجود شيء آخر فوق الأفلاك التسعة كان يجزم أن ما أخبرت به الرسل من العرش هو الفلك التاسع رجماً بالغيب وقولاً بلا علم .

هذا كله على تقدير ثبوت الأفلاك التسعة على المشهور عند أهل الهيئة ؛ إذ في ذلك من النزاع والاضطراب وفي أدلة ذلك ما ليس هذا موضعه ، وإنما نتكلم على هذا التقدير أيضاً فالأفلاك في أشكالها وإحاطة بعضها ببعض من جنس واحد ؛ فنسبة السابع إلى السادس كنسبة السادس إلى الخامس . وإذا كان هناك فلك تاسع فنسبته إلى الثامن كنسبة الثامن إلى السابع .

وأما العرش فالأخبار تدل على مباينته لغيره من المخلوقات ، وإنه ليس نسبته إلى بعضها كنسبة بعضها إلى بعض ، قال الله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٧﴾ ﴾ [غافر ٧] . وقال تعالى : ﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ﴿١٧﴾ ﴾ [الحاقة: ١٧] . فأخبر أن للعرش حملةً اليوم ويوم القيامة ، وأن حملته ومن حوله يسبحون ويستغفرون للمؤمنين ، والمعلوم أن قيام فلك من الأفلاك بقدرة الله تعالى كقيام سائر الأفلاك لا فرق في ذلك بين كرة وكرة ، وإن قدر أن لبعضها في نفس الأمر ملائكة تحملها فحكمه حكم نظيره .

قال الله تعالى :﴿ وَتَرَى الْمَلائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [الزمر ٧٥]. فذكر هنا أن الملائكة تحف من حوله ، وذكر في موضع آخر أن له حملة ، وجمع في موضع ثالث بين حملته ومن حوله ، فقال : ﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ ﴾ [غافر ٧] وأيضاً فقد أخبر أن عرشه كان على الماء قبل أن يخلق السموات والأرض كما قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ ﴾ [هود ٧] .

وقد ثبت في صحيح البخاري وغيره عن عمران بن حصين عن النبي ﷺ أنه قال : «كان الله ولم يكن شيء غيره ، وكان عرشه على الماء ، وكتب في الذكر كل شيء ، وخلق السموات والأرض» ، وفي رواية له : « كان الله

ولم يكن شيء قبله ، وكان عرشه على الماء ، ثم خلق السموات والأرض ، وكتب في الذكر كل شيء » ، وفي رواية لغيره صحيحة : « كان الله ولم يكن شيء معه ، وكان عرشه على الماء ثم كتب في الذكر كل شيء » .

وثبت في صحيح مسلم عن عبدالله بن عمرو عن النبي ﷺ أنه قال : «إن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة ، وكان عرشه على الماء» فهذا التقدير بعد وجود العرش وقبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة ، وهو سبحانه وتعالى يتمدح بأنه ذو العرش المجيد كقوله سبحانه : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا (٤٢) ﴾ [الإسراء ٤٢] . وقوله تعالى : ﴿ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ (١٥) يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦) ﴾ [غافر ١٥-١٦] .

وقال سبحانه : ﴿ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ (١٤) ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ (١٥) فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ (١٦) ﴾ [البروج ١٤ : ١٦] . وقد قرئ « المجيد » بالرفع صفة لله ، وقرئ بالخفض صفة للعرش ، وقال تعالى : ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٨٦) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٨٧) ﴾ [المؤمنون ٨٦ : ٨٧] . فوصف العرش بأنه مجيد وأنه عظيم .

وقال تعالى : ﴿ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ (١١٦) ﴾ [المؤمنون ١١٦] . فوصفه بأنه كريم أيضاً ، وكذلك في الصحيحين عن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ﷺ كان يقول عند الكرب : « لا إله

إلا الله رب العرش العظيم ، لا إله إلا الله رب السموات ورب الأرض ورب العرش الكريم » فوصفه في الحديث بأنه عظيم وكريم أيضاً .

فيقول القائل المنازع : إن نسبة الفلك الأعلى إلى ما دونه كنسبة الآخر إلى ما دونه ، فلو كان العرش من جنس الأفلاك لكانت نسبته إلى ما دونه كنسبة الآخر إلى ما دونه ، وهذا لا يوجب خروجه عن الجنس وتخصيصه بالذكر كما لم يوجب ذلك تخصيص سماء دون سماء ، وإن كانت العليا بالنسبة إلى السفلى كالفلك على قول هؤلاء .

وإنما امتاز عما دونه بكونه أكبر ؛ كما تمتاز السماء العليا على الدنيا بل نسبة السماء إلى الهواء ونسبة الهواء إلى الماء والأرض كنسبة فلك إلى فلك ؛ ومع هذا فلا يخص واحد من هذه الأجناس عما يليه بالذكر ولا بوصفه بالكرم والمجد والعظمة ، وقد علم أنه ليس سبباً لذاتها ولا لحركاتها ، بل لها حركات تخصها ؛ فلا يجوز أن يقال : إن حركته هي سبب الحوادث ، بل إن كانت حركة الأفلاك سبباً للحوادث فحركات غيره التي تخصه أكثر ، ولا يلزم من كونه محيطاً بها أن يكون أعظم من مجموعها ؛ إلا إذا كان له من الغلظ ما يقاوم ذلك ، وإلا فمن المعلوم أن الغليظ إذا كان متقارباً مجموع الداخل أعظم من المحيط بل قد يكون بقدره أضعافاً ، بل الحركات المختلفة التي ليست عن حركته أكثر لكن حركته تشملها كلها .

وقد ثبت في صحيح مسلم عن جويرية بنت الحارث أن النبي ﷺ دخل عليها وكانت تسبح بالحصى إلى الضحى فقال : « لقد قلت كلمة تعدل كلماتٍ لو وزنت بما قلتيه لوزنتهن: سبحان الله زنة عرشه ، سبحان الله

رضى الله نفسه ، سبحان الله مداد كلماته»[1] فهذا يبين أن زنة العرش أثقل الأوزان ، وهم يقولون : إن الفلك التاسع لا خفيف ولا ثقيل ، بل يدل على أنه وحده أثقل ما يمثل به كما أن عدد المخلوقات أكثر ما يمثل به .

وفي الصحيحين عن أبي سعيد قال: جاء رجل من اليهود إلى النبي ﷺ قد لطم وجهه فقال: يا محمد ، رجل من أصحابك لطم وجهي . فقال النبي ﷺ : « ادعوه » فقال : « لم لطمت وجهه ؟ » فقال يا رسول الله : إني مررت بالسوق وهو يقول: والذي اصطفى موسى على البشر ، فقلت : يا خبيث ، وعلى محمد ؟ فأخذتني غضبة فلطمته ، فقال النبي ﷺ «لا تخيروا بين الأنبياء فإن الناس يصعقون يوم القيامة ؛ فأكون أول من يفيق فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش فلا أدري أفاق قبلي أم جوزي بصعقته» فهذا فيه بيان أن للعرش قوائم ، وجاء ذكر القائمة بلفظ الساق ، والأفلاك متشابهة في هذا الباب .

---

(١) لهذا الحديث في مسلم وكذا في السنن لفظان عن جويرية - رضي الله عنها - أحدهما : أن النبي ﷺ خرج من عندها بكرة حين صلَّى الصبح وهي في مسجدها ثم رجع بعد أن أضحى وهي جالسة فقال : « ما زلت على الحال التي فارقتك عليها ؟ قالت نعم. قال النبي ﷺ : لقد قلت بعدك أربع كلمات ثلاث مرات لو وزنت بما قلت منذ اليوم لوزنتهن : سبحان الله وبحمده ، عدد خلقه ، ورضا نفسه ، وزنة عرشه ، ومداد كلماته » واللفظ الآخر أنه قال : « سبحان الله عدد خلقه ، سبحان الله رضا نفسه ، سبحان الله زنة عرشه ، سبحان الله مداد كلماته » وليس في الرواية أنها كانت تسبِّح بالحصى ، ولعله قد ثبت عنها في رواية أخرى كما ثبت عن صفية - رضي الله عنها - والحديث ذكره أبو داود في باب التسبيح بالحصى ولكنه ذكر التسبيح بالحصى عن غيرها.

وقد أخرجا في الصحيحين عن جابر قال : سمعت النبي ﷺ يقول : «اهتز عرش الرحمن لموت سعد بن معاذ» قال فقال رجل لجابر : إن البراء يقول اهتز السرير قال: إنه كان بين هذين الحيين الأوس والخزرج ضغائن . سمعت نبي الله ﷺ يقول : «اهتز عرش الرحمن لموت سعد بن معاذ» ورواه مسلم في صحيحه من حديث أنس أن النبي ﷺ قال - وجنازة سعد موضوعة - : «اهتز لها عرش الرحمن» ، وعندهم أن حركة الفلك التاسع دائمة متشابهة ، ومن تأول ذلك على أن المراد به استبشار حملة العرش وفرحهم ؛ فلا بد له من دليل على ما قال كما ذكر أبو الحسين الطبري وغيره أن سياق الحديث ولفظه ينفي هذا الاحتمال ، وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ : «من آمن بالله ورسوله وأقام الصلاة وآتى الزكاة وصام رمضان كان حقاً على الله أن يدخله الجنة ، هاجر في سبيل الله أو جلس في أرضه التي ولد فيها» قالوا: يا رسول الله ، أفلا نبشر الناس بذلك ؟ قال : «إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيله ، كل درجتين بينهما كما بين السماء والأرض. فإذا سألتم الله فسلوه الفردوس، فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن ، ومنه تفجر أنهار الجنة».

وفي صحيح مسلم عن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ قال : « يا أبا سعيد، من رضي بالله ربا وبالإسلام ديناً ، وبمحمد نبياً وجبت له الجنة» فعجب لها أبو سعيد فقال: أَعِدها عليَّ يا رسول الله ، ففعل، قال: «وأخرى يرفع بها العبد مائة درجة ، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض» قال : وما هي يا رسول الله ؟ قال : «الجهاد في سبيل الله»، وفي صحيح البخاري أن أم الربيع

بنت البراء وهي أم حارثة بن سراقة أتت النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله، ألا تحدثني عن حارثة، وكان قتل يوم بدر -أصابه سهم غَرْب[1]، فإن كان في الجنة صبرت، وإن كان غير ذلك اجتهدت عليه في البكاء. قال: «يا أم حارثة، إنها جنان في الجنة وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى».

فهذا قد يبين أن العرش فوق الفردوس الذي هو أوسط الجنة وأعلاها، وأن الجنة مائة درجة، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، والفردوس أعلاها.

وإذا كان العرش فوقه فلقائل أن يقول: إذا كان كذلك كان في هذا من العلو والارتفاع ما لم يعلم بالهيئة؛ إذ لا يعلم بالحساب أن بين التاسع والأول كما بين السماء والأرض مائة مرة، بل عندهم أن التاسع ملاصق للثامن. فهذا قد بين أن العرش فوق الفردوس الذي هو أوسط الجنة وأعلاها، وفي حديث أبي ذر المشهور قال: قلت يا رسول الله، أيما أنزل عليك أعظم؟ قال: « آية الكرسي » ثم قال: يا أبا ذر، « ما السموات السبع مع الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة، وفضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على الحلقة »، والحديث له طرق، وقد رواه أبو حاتم بن حبّان في صحيحه، وأحمد في المسند، وغيرها.

وقد استدل من استدل على أن العرش مقبب بالحديث الذي في سنن أبي داود وغيره عن جبير بن مطعم قال: أتى رسول الله ﷺ أعرابي فقال:

---

(١) بفتح الراء وسكونها، أي لا يعرف راميه.

يا رسول الله ، جهدت الأنفس وجاع العيال ، وهلك المال ، فادع الله لنا ؛ فإنا نستشفع بك على الله ونستشفع بالله عليك . فسبح رسول الله ﷺ حتى عرف ذلك في وجوه أصحابه ، وقال : «ويحك ، أتدري ما تقول ! إن الله لا يستشفع به على أحد من خلقه ، شأن الله أعظم من ذلك ، إن الله على عرشه ، وإن عرشه على سماواته وأرضه لهكذا - وقال بأصابعه مثل القبة » وفي لفظ : «وإن عرشه فوق سماواته ، وسماواته فوق أرضه ، لهكذا» وقال بأصابعه مثل القبة . وفي لفظ : «وإن عرشه فوق سماواته ، وسماواته فوق أرضه لهكذا» وقال بأصابعه مثل القبة (١) وهذا الحديث وان دل على التقبب وكذلك

---

(١) لهذا الحديث بقية ، وألفاظه مختلفة ، قال البيهقي بعد إيراده في الأسماء والصفات عن أبي داود : وهذا حديث ينفرد به محمد بن إسحاق بن يسار عن يعقوب بن عتبة ، وصاحبا الصحيح لم يحتجا به إنما استشهد مسلم بن الحجاج بمحمد بن إسحاق في أحاديث معدودة أظنهن خمسة قد رواهن غيره. وذكره البخاري في الشواهد ذكراً من غير رواية ، وكان مالك بن أنس لا يرضاه ، ويحيى بن سعيد القطان لا يروي عنه ، ويحيى بن معين يقول : ليس هو بحجة ، وأحمد بن حنبل يقول : يكتب عنه هذه الأحاديث - يعني المغازي ونحوها - فإذا جاء الحلال والحرام أردنا قوما هكذا - يريد أقوى منه - فإذا كان لا يحتج به في الحلال والحرام فأولى أن لا يحتج به في صفات الله سبحانه ، وإنما نقموا عليه في روايته عن أهل الكتاب ثم عن ضعفاء الناس وتدليسه أساميهم. فإذا روى عن ثقة وبين سماعه منه فجماعة من الأئمة لم يروا به بأسا . وهو إنما روى هذا الحديث عن يعقوب بن عتبة ، وبعضهم يقول عن عتبة وعن محمد بن جبير ولم يبين سماعه منهما ، واختلف عليه في لفظه كما ترى ا هـ فجملة القول أن هذا الحديث لا يصح ، ولعل الشيخ أودره استيفاءً للروايات النافية لأقوال أهل الهيئة.

قوله عن الفردوس : « إنها أوسط الجنة وأعلاها » مع قوله : « وإن سقفها عرش الرحمن » أو « إن فوقها عرش الرحمن » ، والأوسط لا يكون الأعلى إلا في المستدير ؛ فهذا لا يدل على أنه فلك من الأفلاك ، بل إذا قدر أنه فوق الأفلاك كلها أمكن هذا فيه سواء قال القائل : إنه محيط بالأفلاك أو قال : إنه فوقها . وليس يحيط بها ، كما أن وجه الأرض فوق النصف الأعلى من الأرض وإن لم يكن محيطاً بذلك ، وقد قال إياس بن معاوية : السماء على الأرض مثل القبة . ومعلوم أن الفلك مستدير مثل ذلك ، لكن لفظ القبة يستلزم استدارة من العلو لا يستلزم استدارة من جميع الجوانب إلا بدليل منفصل ، ولفظ الفلك يستدل به على الاستدارة مطلقاً ، فقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأنبياء ٣٣]. وقوله تعالى : ﴿ لا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [يس ٤٠] . يقتضي أنها في فلك مستديرة مطلقا كما قال ابن عباس - رضي الله عنه - في فلكة مثل فلكة المغزل . وأما لفظ القبة فإنه لا يعترض هذا المعنى لا بنفي ولا إثبات ، لكن يدل على الاستدارة من العلو كالقبة الموضوعة على الأرض ، وقد قال بعضهم : إن الأفلاك غير السموات ؛ لكن رد عليه غيره هذا القول بأن الله تعالى قال: ﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ ﴾ [نوح ١٥ - ١٦] . فأخبر أنه جعل القمر فيهن، وقد أخبر أنه في الفلك [1].

---

(١) الذي يفهمه أهل اللغة من الفلك هنا أنه مدار الكواكب ، وعبارة القاموس مدار النجوم ، قال: ومن كل شيء مستداره ومعظمه ، وهذا غير المراد من الفلك عن =

وليس هذا موضع بسط الكلام في ذلك ، وتحقيق الأمر فيه وبيان أن ما علم بالحساب علماً صحيحاً لا ينافي ما جاء به السمع وأن العلوم السمعية الصحيحة لا تنافي معقولاً صحيحاً ؛ إذ قد بسطنا الكلام على هذا وأمثاله في غير هذا الموضع ، فإن ذلك يحتاج إليه في هذا ونظائره مما قد أشكل على كثير من الناس حيث يرون ما يقال إنه معلوم بالعقل مخالفاً لما يقال إنه معلوم بالسمع ، وأوجب ذلك أن كذبت كل طائفة بما لم تحط بعلمه ، حتى آل الأمر بقوم من أهل الكلام أن تكلموا في معارضة الفلاسفة في الأفلاك بكلام ليس معهم به حجة لا من شرع ولا من عقل ، وظنوا أن ذلك من نصر الشريعة وكان ما جحدوه معلوماً بالأدلة الشرعية أيضاً .

وأما المتفلسفة وأتباعهم فغايتهم أن يستدلوا بما شاهدوه من الحسيات ولا يعلمون ما وراء ذلك ، مثل أن يعلموا أن البخار المتصاعد ينعقد سحابا ، وأن السحاب إذا اصطك حدث عنه صوت به[1] ونحو ذلك ، لكن علمهم بهذا كعلمهم بأن المني يصير في الرحم (جنينا) لكن ما الموجب للمني المتشابه

= علماء الهيئة اليونانية فهو عندهم جسم مستدير صلب شفاف لا يقبل الخرق والإلتام ، وكل فلك من الأول إلى السابع فيه كوكب من الدراري السبع يدور فيه ، والثامن للنجوم الثابتة كلها ، والتاسع أطلس ليس فيه شيء.

(١) يعنون بهذا الصوت الرعد ، وهو قول باطل لم يجدوا ما يعللون به صوت الرعد غيره. وأما علماء الكون في هذا العصر فقد ثبت عندهم أن البرق والرعد يحدثان من اشتعال الكهربائية بالتقاء الإيجابي منها بالسلبي ، وبهذا الاشتعال يحدث تفريغ في الهواء يكون له صوت بقدره ، كما يحدث بإطلاق المدفع ، وهو صوت الرعد والصواعق .

الأجزاء أن يخلق منه هذه الأعضاء المختلفة والمنافع المختلفة على هذا الترتيب المحكم المتقن الذي فيه من الحكمة والرحمة ما بهر الألباب ؟ ، وكذلك ما الموجب لأن يكون الهواء أو البخار ينعقد سحاباً مقدراً بقدر مخصوص في وقت مخصوص على مكان يختص به وينزل على قوم عند حاجتهم إليه ؛ فيسقيهم بقدر الحاجة لا يزيد فيهلكوا ولا ينقص فيعوزوا ؟ وما الموجب لأن يساق إلى الأرض الجُرُز التي لا تمطر أو تمطر مطراً لا يغنيها كأرض مصر أو كان المطر القليل لا يكفيها والكثير يهدم أبنيتها[1] قال تعالى : ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [السجدة ٢٧] .

وكذلك السحاب المتحرك ، وقد علم أن كل حركة فإما أن تكون قسرية وهي تابعة للقاسر ، أو طبيعية ، وإنما تكون إذا خرج المطبوع من مركزه فيطلب عوده إليه أو إرادته وهي الأصل ، فجميع الحركات تابعة للحركة الإرادية التي تصدر عن ملائكة الله تعالى التي هي المدبرات أمراً والمقسمات أمراً ، وغير ذلك مما أخبر الله تعالى به عن الملائكة . وفي المعقول ما يصدق ذلك . فالكلام في هذا وأمثاله له موضع غير هذا .

والمقصود هنا أن نبين ما ذكر في السؤال زائل على كل تقدير ؛ فيكون الكلام في الجواب مبنياً على حجج علمية لا تقليدية ولا مسلمة ، وإذا بينا

(١) إن كون نزول المطر في كل أرض بقدر حاجة أهلها لا يزيد ولا ينقص غير مسلَّم ، والمعلوم بالمشاهدة خلافه ، فكثيراً ما يزيد فيحدث ضرراً عظيماً ؛ أو ينقص فتهلك الزروع وتقل الغلال وتحدث المجاعات ، وقدعلم البشر من سنن الله في ذلك في عصرنا أكثر مما كان يعلم من قبلهم ، ولا يزالون يجهلون منها أضعاف ما علموا .

حصول الجواب على كل تقدير ـ كما سنوضحه ـ لم يضرنا بعد ذلك أن يكون بعض التقديرات هو الواقع ، وان كنا نعلم ذلك ؛ لكن تحرير الجواب على تقدير دون تقدير وإثبات ذلك فيه طول لا يحتاج إليه هنا ، فإن الجواب إذا كان حاصلاً على كل تقدير كان أحسن وأوجز .

المقام الثاني

أن يقال: العرش سواء كان هذا الفلك التاسع ، أو جسما محيطاً بالفلك التاسع ، أو كان فوقه من جهة وجه الأرض محيطاً به ، أو قيل فيه غير ذلك ، فيجب أن يعلم أن العالم العلوي والسفلي بالنسبة إلى الخالق تعالى في غاية الصغر كما قال تعالى : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [الزمر ٦٧]. وفي الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال : «يقبض الله تبارك وتعالى الأرض يوم القيامة ، ويطوي السماء بيمينه ، ثم يقول : أنا الملك أين ملوك الأرض ؟» وفي الصحيحين ـ واللفظ لمسلم ـ عن عبدالله بن عمر: قال قال رسول الله ﷺ : «يطوي الله السموات يوم القيامة ، ثم يأخذهن بيده اليمنى ، ثم يقول: أنا الملك أين الجبارون؟ أين المتكبرون ؟» ثم يطوي الأرضين بشماله ، ثم يقول : أنا الملك أين الجبارون ؟ أين المتكبرون ؟ » وفي لفظ في الصحيح عن عبدالله بن مقسم أنه نظر إلى عبدالله بن عمر كيف يحكي النبي ﷺ قال : « يأخذ الله سماواته وأرضه بيده ويقول : أنا الملك ، ويقبض

أصابعه ويبسطها ، أنا الملك» حتى نظرت إلى المنبر يتحرك من أسفل شيء منه حتى إني أقول : أساقط هو برسول الله ﷺ ؟ ، وفي لفظ قال : «رأيت رسول الله ﷺ على المنبر وهو يقول : يأخذ الجبار سماواته وأرضه – وقبض بيده وجعل يقبضها ويبسطها – ويقول : أنا الرحمن ، أنا الملك ، أنا السلام ، أنا المؤمن ، أنا المهيمن ، أنا العزيز ، أنا الجبار المتكبر ، أنا الذي بدأت الدنيا ولم تكن شيئا ، أنا الذي أعدتها أين الملوك ؟ أين الجبارون ؟ أين المتكبرون ؟» ويتميل رسول الله ﷺ على يمينه وعلى شماله ، حتى نظرت إلى المنبر يتحرك من أسفل شيء منه حتى إني لأقول : أساقط هو برسول الله ﷺ ؟ والحديث مروي في الصحيح والمسانيد وغيرها بألفاظ يصدق بعضها بعضا ، وفي بعض ألفاظه قال : قرأ على المنبر ﴿ **وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ** ﴾ الآية . [الزمر ٦٧] . قال : « مطوية في كفه يرمي بها كما يرمي الغلام بالكرة » ، وفي لفظ : « يأخذ الجبار سماواته وأرضه بيده فيجعلها في كفه ثم يقول بها هكذا كما يقول الصبيان بالكرة ، أنا الله الواحد » وقال ابن عباس : « يقبض عليهما فما يرى طرفاهما بيده » وفي لفظ عنه : « ما السموات السبع والأرضون السبع وما فيهن وما بينهن بيد الرحمن إلا كخردلة في يد أحدكم » وهذه الآثار معروفة في كتب الحديث .

وفي الصحيحين عن عبدالله بن مسعود قال : أتى النبي ﷺ رجل يهودي، فقال: يا محمد ، إن الله يجعل السموات على إصبع ، والأرضين على إصبع ، والجبال والشجر على إصبع ، والماء والثرى على إصبع ، وسائر الخلق على إصبع ، فيهزهن فيقول: أنا الملك ، أنا الملك ، قال : فضحك النبي

ﷺ حتى بدت نواجذه تصديقاً لقول الحبر[1] ثم قال : ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ إلى آخر الآية . [الزمر ٦٧] .

ففي هذه الآية والأحاديث الصحيحة المفسرة لها المستفيضة التي اتفق أهل العلم على صحتها وتلقّيها بالقبول ما يبين أن السموات والأرض وما بينهما بالنسبة إلى عظمة الله تعالى أصغر من أن يكون مع قبضه لها إلا كالشيء الصغير في يد أحدنا حتى يدحوها كما تدحى الكرة[2].

قال عبدالعزيز بن عبدالله بن أبي سلمة الماجشون الإمام - نظير مالك - في كلامه المشهور الذي رد فيه على الجهمية ومن خلفها[3] قال: فأما الذي جحد ما وصف الرب من نفسه تعمقاً وتكلفاً قد استهوته الشياطين في الأرض حيران ، فصار يستدل بزعمه على جحد ما وصف الرب وسمى من نفسه بأن قال : لا بد إن كان له كذا من أن يكون له كذا ، فعمي عن البين بالخفي ، فجحد ما سمى الرب من نفسه فصمت الرب عما لم يسم منها ؛ فلم يزل يمثل له الشيطان حتى جحد قول الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة ٢٢ ، ٢٣] . فقال : لا يراه أحد يوم القيامة فجحدوا الله

---

(١) قوله : تصديقاً لقول الحبر قال بعض شراح الصحيحين : إن هذه زيادة من الراوي قالها بحسب فهمه ، وهي ليست في كل الروايات ، وأنكروا أن يكون ﷺ صدق اليهودي ، بل قالوا : إنه أراد الإنكار عليه ، وتلا الآية الدالة على ذلك ، وخالفهم آخرون . فراجع الأقوال في شرح الحديث من كتاب التوحيد في فتح الباري.

(٢) دحا الكرة يدحوها : دحرجها .

(٣) أي من جاء بعد الجهمية ممن يقول قولهم.

أفضل كرامته التي أكرم الله أولياءه يوم القيامة من النظر إلى وجهه ونظرته له إياهم ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾﴾ [القمر ٥٥] . وقد قضى أنهم لا يموتون ؛ فهم بالنظر إليه ينضرون - إلى أن قال - : وإنما جحدوا رؤية الله يوم القيامة إقامة للحجة الضالة المضلة ؛ لأنه قد عرف إذا تجلى لهم يوم القيامة رأوا منه ما كانوا به قبل ذلك مؤمنين وكان له جاحداً .

وقال المسلمون : يا رسول الله ، هل نرى ربنا ؟ فقال رسول الله ﷺ : « هل تضارون[1] في رؤية الشمس ليس دونها سحاب ؟ » قالوا : لا ، قال : « فهل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب ؟ » قالوا : لا ، قال : « فإنكم ترون ربكم كذلك » ، وقال رسول الله ﷺ : « لا تمتلىء النار حتى يضع الجبار فيها قدمه فتقول قط قط ، وينزوي بعضها إلى بعض » .

وقال لثابت بن قيس : « قد ضحك الله مما فعلت بضيفك البارحة » وقال فيما بلغنا عنه : « إن الله يضحك من أزْلكم وقنوطكم وسرعة إجابتكم » [2] وقال له رجل من العرب : إن ربنا يضحك ؟ قال « نعم » قال: لن نعدم من رب يضحك خيراً . وفي أشباه لهذا مما لم نحصه . وقال تعالى : ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى ١١] ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور ٤٨] .

---

(١) يروى بتشديد الراء وتخفيفها ؛ فالتشديد بمعنى لا تتخالفون ولا تتجادلون في صحة النظر إليه لوضوحه وظهوره . وقال الجوهري : أراد بالمضارة الاجتماع والازدحام عند النظر اليه . وأما التخفيف فهو من الضير وهو لغة في الضر.

(٢) قال في النهاية : هكذا يروى في بعض الطرق. والمعروف « من إلكم » والالِ والازل بالفتح : الشدة والضيق ؛ كأنه أراد من شدة يأسكم وقنوطكم.

وقال : ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴿٣٩﴾ ﴾ [طه ٣٩] . وقال : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ [ص ٧٥] وقال : ﴿ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [الزمر ٦٧] . فوالله ما دلّهم على عظم ما وصف به نفسه وما تحيط به قبضته إلا صغر نظيرها منهم عندهم أن ذلك الذي ألقى في روعهم وخلق على معرفة قلوبهم . فما وصف الله من نفسه وسماه على لسان رسوله سميناه كما سماه ، ولم نتكلف منه علم ما سواه لا هذا ولا هذا ، لا نجحد ما وصف ، ولا نتكلف معرفة ما لم يصف . انتهى .

وإذا كان كذلك فإذا قدر أن المخلوقات كالكرة فهذا قبضه لها ورميه بها وإنما بين لنا من عظمته وصغر المخلوقات بالنسبه إليه ما يعقل نظيره منا .

ثم الذي في القرآن والحديث يبين أنه إن شاء قبضها وفعل بها ما ذكر كما يفعل ذلك يوم القيامة ، وإن شاء لم يفعل ذلك ، فهو قادر على أن يقبضها ويدحوها كالكرة ، وفي ذلك من الإحاطة بها ما لا يخفى ، وإن شاء لم يفعل ذلك ، وبكل حال فهو مباين لها ليس بمحايث لها .

ومن المعلوم أن الواحد منا – ولله المثل الأعلى – إذا كان عنده خردلة إن شاء قبضها فأحاطت بها قبضته ، وإن شاء لم يقبضها بل حولها تحته فهو في الحالتين مباين لها ، وسواء قدر أن العرش هو محيط بالمخلوقات كإحاطة الكرة بما فيها أو قيل : إنه فوقها وليس محيطا بها كوجه الأرض الذي نحن

عليه بالنسبة إلى جوفها وكالقبة بالنسبة إلى ما تحتها أو غير ذلك : فعلى التقديرين يكون العرش فوق المخلوقات والخالق سبحانه وتعالى فوقه ، والعبد في توجهه إلى الله يقصد العلو دون التحت .

وتمام هذا ببيان (المقام الثالث) وهو أن يقول : لا يخلو إما أن يكون العرش كرياً كالأفلاك ويكون محيطاً بها ، وإما أن يكون فوقها وليس هو كريا ، فإن كان الأول فمن المعلوم باتفاق من يعلم هذا أن الأفلاك مستديرة كرية الشكل ، وأن الجهة العليا هي جهة المحيط وهو المحدب ، وأن الجهة السفلى هي المركز[1] وليس للأفلاك إلا جهتان ؛ العلوُّ والسفل فقط .

وأما الجهات الست فهي للحيوان فإن له ستة جوانب يؤم جهة فتكون أمامه ويخلف أخرى فتكون خلفه ، وجهة تحاذي يمينه وجهة تحاذي شماله ، وجهة تحاذي رأسه ، وجهة تحاذي رجليه . وليس لهذه الجهات الست في نفسها صفة لازمة ، بل هي بحسب النسبة والإضافة ، فيكون يمين هذا ما يكون يسار هذا ، ويكون أمام هذا ما يكون خلف هذا ، ويكون فوق هذا

---

(١) أي لمركز الوسط من الداخل ، وهو المقعر الذي تكون جوانب المحيط بالنسبة إليه متساوية إذا كان المحيط متساوياً كمحيط الفلك عندهم ؛ لأنه كرة تامة ، وأما الأرض فهي كرة غير تامة ؛ لأن في محيطها تسطيحاً وانبطاحاً من جانبي قطبيها الشمالي والجنوبي فمركزها أقرب إليهما منه إلى سطح الأقاليم الاستوائية ، وناهيك بما فيها من الجبال ، ولكن المركز هو جهة السفل لها من كل جانب ، والسطح محيطها وهو جهة العلو من كل جانب ، وأما جهة العلو لمن على سطحها كالإنسان فهو ما فوق رأسه من السماء أينما كان .

ما يكون تحت هذا . لكن جهة العلو والسفل للأفلاك لا تتغير ، فالمحيط هو العلو والمركز هو السفل ، مع أن وجه الأرض التي وضعها الله للأنام وأرساها بالجبال هو الذي عليه الناس والبهائم والشجر والنبات والجبال والأنهار الجارية .

فأما الناحية الأخرى من الأرض فالبحر محيط بها ، وليس هناك شيء من الآدميين وما يتبعهم . ولو قدر أن هناك أحد لكان على ظهر الأرض ولم يكن من في هذه الجهة تحت من في هذه الجهة ، ولا من في هذه تحت من في هذه ، كما أن الأفلاك محيطة بالمركز وليس أحد جانبي الفلك تحت الآخر، ولا القطب الشمالي تحت الجنوبي ولا بالعكس ، وإن كان الشمالي هو الظاهر لنا فوق الأرض وارتفاعه بحسب بعد الناس عن خط الاستواء ، فما كان بعده عن خط الاستواء ثلاثين درجة مثلاً كان ارتفاع القطب عنده ثلاثين درجة وهو الذي يسمى عرض البلد . فكما أن جوانب الأرض المحيطة بها وجوانب الفلك المستدير ليس بعضها فوق بعض ولا تحته ، فكذلك من يكون على الأرض من الحيوان والنبات لا يقال : إنه تحت أولئك ، وإنما هذا خيال يتخيله الإنسان ، وهو تحت إضافي ، كما لو كانت نملة تحت سقف ؛ فالسقف فوقها وإن كانت رجلاها تحاذيه ، وكذلك من علق منكوساً فإنه تحت السماء ، وإن كانت رجلاه على السماء ، وكذلك قد يتوهم الإنسان إذا كان في أحد جانبي الأرض أو الفلك أن الجانب الآخر تحته [١].

---

(١) كل ما قاله شيخ الإسلام في الأرض فهو مبني على كونها كرة كما جزم به علماء الهيئة المتقدمون والمتأخرون ومن اطلع على هذا العلم وفهمه من علماء الإسلام =

وهذا أمر لا يتنازع فيه اثنان ممن يقول: إن الأفلاك مستديرة ، واستدارة الأفلاك كما أنه قول أهل الهيئة والحساب ؛ فهو الذي عليه علماء المسلمين كما ذكره أبو الحسين بن المنادى وأبو محمد بن حزم وأبو الفرج بن الجوزي وغيرهم أنه متفق عليه بين علماء المسلمين ، وقد قال تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأنبياء ٣٣] . قال ابن عباس في فلكة مثل فلكة المغزل ، والفلك في اللغة هو المستدير[1] ومنه قولهم: تفلك ثدي الجارية إذا استدار. وكل من جعل الأفلاك مستديرة يعلم أن المحيط هو العالي على المركز في كل جانب . ومن توهم أن من يكون في الفلك من ناحيته يكون تحته من في الفلك من الناحية الأخرى في نفس الأمر فهو متوهم عندهم .

= الأعلام . وهذه مسألة قطعية لا ظنية ، وصرح بها ابن القيم من علماء الحديث بالتبع لأستاذة المؤلف وللإمام ابن حزم واقتناعاً بأدلتها ، ويدل عليه قوله تعالى : ﴿ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ ﴾ الآية . [الزمر ٥] . فإن التكوير هو اللف على الجسم الكري المستدير كتكوير العمامة على الرأس ، وكذا قوله تعالى : ﴿وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴿٣٠﴾ ﴾ [النازعات ٣٠] . فإن الدحو في أصل اللغة دحرجة الكرة وما في معناها . ولا يعارضه قوله تعالى : ﴿ وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الغاشية ٢٠] . كما توهم الجلال وغيره ؛ لأن وجه الكرة سطح لها ، والسطح في اللغة أعم منه في عرف أهل الهندسة ، وكذلك الخط .

(١) هذا معناه العام . وأما معناه الخاص بالكواكب فهي مدار الكوكب كما تقدم في حاشية (ص ١٤ ، ١٥) وهو مستدير على كل حال سواء كان كما قال المتقدمون من اليونان والعرب أم كان فضاء ، فما نقله شيخ الإسلام من اتفاق علماء المسلمين على استدارة الأفلاك صحيح على كل حال فإن الكواكب كلها مستديرة كرية الشكل وأفلاكها التي تدور فيها كذلك ، والعالم كله كري الشكل ، وكل جرم من أجرامه يسبح دائراً في فلك له مستدير بنظام حسابي مطرد ، كما قال تعالى : ﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾ ﴾ [الرحمن ٥] .

وإذا كان الأمر كذلك فإذا قدر أن العرش مستدير محيط بالمخلوقات كان هو أعلاها وسقفها وهو فوقها مطلقاً ؛ فلا يتوجه إليه وإلى ما فوقه الإنسان إلا من العلو لا من جهته الباقية أصلا .

ومن توجه إلى الفلك التاسع أو الثامن أو غيره من الأفلاك من غير جهة العلو كان جاهلاً باتفاق العقلاء ، فكيف بالتوجه إلى العرش أو إلى ما فوقه ؟! وغاية ما يقدر أن يكون كري الشكل ، والله تعالى محيط بالمخلوقات كلها إحاطة تليق بجلاله [١] فإن السموات السبع في يده أصغر من الحمصة في يد أحدنا.

وأما قول القائل: إذا كان كريا والله من ورائه محيط به بائن عنه ، فما فائدة أن العبد يتوجه إلى الله حين دعائه وعبادته فيقصد العلو دون التحت ، فلا فرق حينئذ وقت الدعاء بين قصد جهة العلو وغيرها من الجهات التي تحيط بالداعي ؟ ومع هذا نجد في قلوبنا قصداً بطلب العلو ، لا نلتفت يمنة ولا يسرة فأخبرونا عن هذه الضرورة التي نجدها في قلوبنا وقد فطرنا عليها.

فيقال له : هذا السؤال إنما ورد لتوهم المتوهم أن نصف الفلك يكون تحت الأرض وتحت ما على وجه الأرض من الآدميين والبهائم ، وهذا غلط عظيم ، فلو كان الفلك تحت الأرض من جهة لكان تحتها من كل جهة ، فكان يلزم أن يكون الفلك تحت الأرض مطلقاً ، وهذا قلب للحقائق ؛ إذ الفلك هو فوق الأرض مطلقاً ، وأهل الهيئة يقولون : لو أن الأرض مخروقة إلى ناحية

---

(١) أما دليل إحاطته فقوله عز وجل : ﴿وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ ﴿٢٠﴾﴾ [البروج ٢٠] . وأما قوله : إحاطة تليق بجلاله فلنفي التشبيه بإحاطة الأجسام بعضها ببعض ، على قاعدة السلف التي قررها شيخ الإسلام مراراً ، وهي الإيمان بالنصوص من غير تشبيه ولا تعطيل ولا تأويل .

أرجلنا وألقي في الخرق شيء ثقيل كالحجر ونحوه لكان ينتهي إلى المركز ، حتى لو ألقي من تلك الناحية حجر آخر لالتقيا جميعاً في المركز[1] ولو قدر أن إنسانين التقيا في المركز بدل الحجر لالتقت رجلاهما ولم يكن أحدهما تحت الآخر ؛ بل كلاهما فوق المركز وكلاهما تحت الفلك كالمشرق والمغرب ، فإنه لو قدر أن رجلاً بالمشرق في السماء أو الأرض ، ورجلا بالمغرب في السماء أو الأرض لم يكن أحدهما تحت الآخر ، وسواء كان رأسه أو رجلاه أو بطنه أو ظهره أو جنبه مما يلي السماء أو مما يلي الأرض ، وإذا كان مطلوب أحدهما ما فوق الفلك لم يطلبه الآخر إلا من الجهة العليا ، لم يطلبه من جهة رجليه أو يمينه أو يساره ؛ لوجهين :

(أحدهما) أن مطلوبه من الجهة العليا أقرب إليه من جميع الجهات ، فلو قدر رجل أو ملك يصعد إلى السماء أو إلى ما فوق كان صعوده مما يلي رأسه إذا أمكنه ذلك ولا يقول عاقل: إنه يخرق في الأرض ثم يصعد من تلك الناحية، ولا إنه يذهب يمينا أو شمالاً أو أماماً أو خلفاً إلى حيث أمكن من الأرض ثم يصعد ؛ لأن أي مكان ذهب إليه كان بمنزلة مكانه أو هو دونه ، وكان الفلك هناك فوقه ، فيكون ذهابه إلى الجهات الخمس تطويلاً وتعباً من غير فائدة ، ولو أن رجلاً أراد أن يخاطب الشمس والقمر فإنه لا يخاطبه إلا من الجهة العليا ، مع أن الشمس والقمر قد تشرق وقد تغرب فتنحرف عن سمت

---

(١) هذا متفق عليه بين المتقدمين والمتأخرين من علماء الفلك ، ويعللون به جاذبية الثقل : فهي تختلف بقدر بعد المحيط عن المركز ، وهو يختلف في المنطقة الاستوائية عن منطقتي القطبين ؛ كما أشرنا إليه في حاشية (ص ١٤ ، ١٥) .

الرأس ، فكيف بما هو فوق كل شيء دائماً لا يأفل ولا يغيب سبحانه وتعالى ؟!
وكما أن الحركة كحركة الحجر تطلب مركزها بأقصر طريق وهو الخط المستقيم ، فالطلب الإرادي الذي يقوم بقلوب العباد كيف يعدل عن الصراط المستقيم القريب ؟ ويعدل إلى طريق منحرف طويل ؟ والله فطر عباده على الصحة والاستقامة إلا من اجتالته الشياطين فأخرجته عن فطرته التي فطر عليها .

(الوجه الثاني) أنه إذا قصد السفل بلا علو كان منتهى قصده المركز ، وإنْ قصده أمامه أو وراءه أو يمينه أو يساره من غير قصد العلو كان منتهى قصده أجزاء الهواء فلا بد له من قصد العلو ضرورة ، سواء قصد مع ذلك هذه الجهات أو لم يقصدها ، ولو فرض أنه قال : أقصده من اليمين مع العلو، أو من السفل مع العلو كان هذا بمنزلة من يقول : أريد أن أحج من الغرب فأذهب إلى خراسان[1] ثم أذهب إلى مكة ، بل بمنزلة من يقول أصعد إلى الأفلاك فأنزل في الأرض لأصعد إلى الفلك من الناحية الأخرى ، فهذا وإن كان ممكنا في المقدار ، لكنه يستحيل من جهة امتناع إرادة القاصد له ، وهو مخالف للفطرة ، فإن القاصد يطلب مقصوده بأقرب طريق لا سيما إذا كان مقصوده معبوده الذي يعبده ويتوكل عليه . وإذا توجه إليه على غير الصراط المستقيم كان مسيره منكوساً معكوساً .

---

(١) أي من الشام – حيث كان المؤلف – إلى خراسان ، ومعلوم أن مكة في الجهة الجنوبية للشام ، وخراسان في الجهة الشرقية ؛ فالذهاب من الشام غرباً إلى خراسان في الشرق ثم إلى مكة ممكن ؛ لأن الأرض كرة ، ولكن هذا عمل لا يعمله من لا يريد بطواف أكثر محيط الأرض إلا مكة للحج إلا أن يكون مجنوناً. وإنما يفعله العاقل إذا كانت الرحلة إلى هذه الأقطار مقصودة لذاتها.

وأيضاً فإن هذا الجمع في سيره وقصده بين النفي والإثبات بين أن يتقرب إلى المقصود ويتباعد عنه ، ويريده وينفر منه ، فإنه إذا توجه إليه من الوجه الذي هو عنه أبعد وأقصى ، وعدل عن الوجه الأقرب الأدنى ، كان جامعاً بين قصدين متناقضين ، فلا يكون قصده له تاماً ؛ إذ القصد التام ينفي نقيضه وضده ، وهذا معلوم بالفطرة ، فإن الشخص إذا كان يحب النبي ﷺ محبة تامة ويقصده أو يحب غيره مما يحب - سواء كانت محبة محمودة أو مذمومة- ومتى كانت المحبة تامة ، وطلب المحبوب طلبه من أقرب طريق يصل إليه[1] بخلاف ما إذا كانت المحبة مترددة مثل أن يحب ما يكره محبته في الدين فتبقى شهوته تدعوه إلى قصده ، وعقله ينهاه عن ذلك فتراه يقصده من بعيد ، كما يقول العامة : رِجْل إلى قدام ، ورِجْل إلى خلف[2] . وكذلك إذا كان في دينه نقص وعقله يأمره بقصد المسجد أو الجهاد أو غير ذلك من المقصودات التي تُحبُّ في الدين ، وتكرهها النفس ، فإنه يبقى قاصداً لذلك من طريق بعيد : متباطئاً في السير ، وهذا كله معلوم بالفطرة .

وكذلك إذا لم يكن القاصد يريد الذهاب بنفسه ، بل يريد خطاب المقصود ودعاءه ونحو ذلك ؛ فإنه يخاطبه من أقرب جهة يسمع دعاءه منها وينال به مقصوده إذا كان القصد تاماً ، ولو كان رجلاً في مكان عال ، وآخر يناديه لتوجَّه إليه وناداه ولوحط رأسه في بئر وناداه بحيث يسمع صوته لكان هذا

---

(١) قوله : طلبه من أقرب طريق إلخ جواب إذا ومتى ؛ أي إذا كان يجب ما ذكر ومتى كانت محبته له تامة وطلبه بمقتضاها طلبه من أقرب طريق، وفيه ما ترى من التعقيد.

(٢) مأخوذ من المثل العربي : مالي أراك تقدِّم رجلاً وتؤخِّر أخرى.

ممكنا ، لكن ليس في الفطرة أن يفعل ذلك من يكون قصده إسماعه من غير مصلحة راجحة ولا يفعل نحو ذلك إلا عند ضعف القصد ونحوه .

وحديث الإدلاء الذي روي من حديث أبي هريرة وأبي ذر قد رواه الترمذي وغيره من حديث الحسن عن أبي هريرة وهو منقطع ، فإن الحسن لم يسمع من أبي هريرة ، ولكن يقويه حديث أبي ذر المرفوع ، فإن كان ثابتاً فمعناه موافق لهذا[1] فإن قوله « لو أدلى أحدكم بحبل لهبط على الله » إنما هو تقدير مفروض : لو وقع الإدلاء لوقع عليه ، لكنه لا يمكن أن يدلي أحد على الله شيئاً لأنه عال بالذات ، وإذا هبط شيء إلى جهة الأرض وقف في المركز ولم يصعد إلى الجهة الأخرى لكن بتقدير فرض الإدلاء ، لا يكون ما ذكر من الجزاء .

فهكذا ما ذكره السائل إذا قدر أن العبد يقصده من تلك الجهة كان هو سبحانه يسمع كلامه ، وإن كان متوجهاً إليه بقلبه ، لكن هذا ما يمتنع من الفطرة ؛ لأن قصده للشيء التام ينافي قصد ضده ؛ فكما أن الجهة العليا بالذات تنافي الجهة السفلى ، فكذلك قصد الأعلى بالذات ينافي قصده من أسفل ، فكما أن ما يهبط إلى جوف الأرض يمتنع صعوده إلى تلك الناحية ؛

---

(١) إن شيخ الإسلام يعلم أن الحديث غير ثابت ، وتقوية الضعيف للضعيف لا يعتد بها في ثبوت حكم شرعي ؛ فعدم الاعتداد بها في صفات الله أولى ؛ ولا سيما هذه المتشابهات. ولكنه يجيب عن الإشكال فيه بفرض وقوعه ، وعبر عنه بقوله : « إن كان ثابتاً » لأن الأصل في شرط « إن » عدم الوقوع لامتناعه أو لتنزيله منزلة الممتنع كما حققناه في تفسير ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة ٢٣] من جزء التفسير الأول .

لأنها عالية فترد الهابط بعلوها ، كما أن الجهة العليا من عندنا ترد ما يصعد إليها من الثقيل فلا يصعد الثقيل إلا برافع يرفعه يدافع به ما في قوته من الهبوط ، فكذلك ما يهبط من أعلى الأرض إلى أسفلها وهو المركز ، لا يصعد من هناك إلى ذلك الوجه إلا برافع يرفعه يدافع به ما في قوته من الهبوط إلى المركز ، فإن قدر أن الرافع أقوى كان صاعداً به إلى الفلك من تلك الناحية ، وصعد به إلى الله .

وإنما يسمى هبوطاً باعتبار ما في أذهان المخاطبين أن ما يحاذي أرجلهم يكون هابطاً ويسمى هبوطاً مع تسمية إهباطه إدلاءً ، وهو إنما يكون إدلاءً حقيقياً إلى المركز ، ومن هناك إنما يكون مدخاً للحبل والدلو لا إدلاءً له [١].

لكن الجزاء والشرط مقدران لا محققان ، فإنه قال : لو أدلى لهبط ، أي لو فرض أن هناك هبوطاً وهو يكون إدلاءً وهبوطاً إذا قدر أن السموات تحت الأرض، وهذا التقدير منتفٍ ، ولكن فائدته بيان الإحاطة والعلو من كل جانب.

وهذا المفروض ممتنع في حقنا لا نقدر عليه ، فلا يتصور أن يهبط على الله شيء لكن الله قادر على أن يخرق من هنا إلى هناك بحبل ، ولكن لا يكون في حقه إدلاء فلا يكون في حقه هبوط عليه ، كما لو خرق بحبل من القطب أو من مشرق الشمس إلى مغربها ، وقدرنا أن الحبل مر في وسط الأرض فإن الله قادر على ذلك كله ، ولا فرق بالنسبة إليه على هذا التقدير بين أن

---

(١) كذا في الأصل ، والمدح لا يظهر معناه هنا ، والذي يقتضيه المقام أن يقال : إن ما يمد أو يدفع من مركز الكرة إلى جانب من المحيط يكون مده أو دفعه رفعاً وإعلاءً له لا إدلاءً ؛ لأن المركز هو الأسفل ، والمحيط هو الأعلى . كما تقدم .

يخرق من جانب اليمين منا إلى جانب اليسار، أو من جهة أمامنا إلى جهة خلفنا ، ومن جهة رءوسنا إلى جهة أرجلنا إذا مر الحبل بالأرض . فعلى كل تقدير قد خرق بالحبل من جانب المحيط إلى جانبه الآخر مع خرق المركز وتقدير إحاطة قبضته بالسموات والأرض ؛ فالحبل الذي قدرأنه خرق به العالم وصل إليه ، ولا يسمى شيء من ذلك بالنسبة إليه لا إدلاءً ولا هبوطاً .

وأما بالنسبة إلينا فإن ما تحت أرجلنا تحت لنا، وما فوق رءوسنا فوق لنا، وما ندليه من ناحية رءوسنا إلى ناحية أرجلنا نتخيل أنه هابط[1] فإذا قدر أن أحدنا أدلى بحبل كان هابطا على ما هناك ، لكن هذا تقدير ممتنع في حقنا.

والمقصود به بيان إحاطة الخالق تعالى كما بين أنه يقبض السموات ويطوي الأرض ونحو ذلك مما فيه بيان إحاطته بالمخلوقات ؛ ولهذا قرأ في تمام هذا الحديث : ﴿هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾﴾ [الحديد ٣] .

وهذا كله كلام على تقدير صحته فإن الترمذي لما رواه قال : وفسَّره بعض أهل العلم بأنه هبط على علم الله .

وبعض الحلولية والاتحادية يظن أن في هذا الحديث ما يدل على قولهم الباطل ، وهو أنه حلّ بذاته في كل مكان ، أو أن وجوده وجود الأمكنة ونحو ذلك.

---

(١) قوله : « نتخيل أنه هابط » إنما سمي هذا تخيلا ؛ لأن الجهات الست المذكورة أمور نسبية لا حقيقة ثابتة في نفسها.

والتحقيق أن الحديث لا يدل على شيء من ذلك إن كان ثابتاً ، فإن قوله : « لو دلي بحبل لهبط » يدل على أنه [١] ليس في المدلي ولا في الحبل ولا في الدلو ولا في غير ذلك ، وإنما يقتضي أنه من تلك الناحية .

وكذلك تأويله بالعلم تأويل ظاهر الفساد من جنس تأويلات الجهمية ، بل تقدير ثبوته يكون دالاً على الإحاطة ، والإحاطة قد علم أن الله قادر عليها ، وعلم أنها تكون يوم القيامة بالكتاب والسنة [٢] فليس في إثباتها في الجملة ما يخالف العقل ولا الشرع ، لكن لا نتكلم إلا بما نعلم ، وما لم نعلمه أمسكنا عنه ، وما كان مقدمة دليله مشكوكاً فيها عند بعض الناس ، كان حقه أن يشك فيه حتى يتبين له الحق ، وإلا فليسكت عما لا يعلم .

وإذا تبين هذا ، فكذلك قصده بقصده إلى تلك الناحية ، ولو فرض أنا فعلناه لكنا قاصدين له على هذا التقدير لكن قصدنا له بالقصد إلى تلك الجهة ممتنع في حقنا ؛ لأن القصد التام الجازم يوجب طلب المقصود بحسب الإمكان.

ولهذا قد بينًا في غير هذا الموضع لما تكلمنا على تنازع الناس في النية المجردة عن الفعل هل يعاقب عليها أم لا يعاقب ؟ بينًا أن الإرادة الجازمة توجب أن يفعل المريد ما يقدر عليه من المراد . ومتى لم يفعل مقدوره لم تكن

---

(١) الضمير راجع إلى الله تعالى ؛ يعني أنه لو كان تعالى في هذه الأشياء أو لو كان عينها لما صح التعبير الذي بني على أن هنالك حبلاً ودلواً وإنساناً مدلياً للدلو المعلق بالحبل ، وأن غاية فعله وصول الحبل إلى الله الذي هو غير ما ذكر.

(٢) قوله : « بالكتاب والسنة » متعلق بعلم .

إرادته جازمة بل يكون همًّا « ومن همَّ بسيئة فلم يفعلها لم تكتب عليه فان تركها لله كتب له حسنة» ؛ ولهذا وقع الفرق بين همِّ يوسف ـ عليه السلام ـ وهمِّ امرأة العزيز كما قال الإمام أحمد : « الهمَّ همَّان : همّ خطرات ، وهمّ إصرار، فيوسف ـ عليه السلام ـ همّ همّا تركه لله فأثيب عنه ، وتلك همّت همّ إصرار ففعلت ما قدرت عليه من تحصيل مرادها وإن لم يحصل لها المطلوب » .

والذين قالوا : يعاقب بالإرادة ، احتجوا بقوله ﷺ : « إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار» قالوا : يا رسول الله ، هذا القاتل فما بال المقتول ؟ قال : « إنه أراد قتل صاحبه» وفي لفظ : « إنه كان حريصاً على قتل صاحبه » فهذا أراد إرادة جازمة وفعل ما يقدر عليه وإن لم يدرك مطلوبه ، فهو بمنزلة امرأة العزيز ، فمتى كان القصد جازماً لزم أن يفعل القاصد ما يقدر عليه في حصول المقصود ، وإذا كان قادراً على حصول مقصوده بطريق مستقيم امتنع مع القصد التام أن يحصله بطريق معكوس بعيد.

ولهذا امتنع في فطر العباد عند ضرورتهم ودعائهم لله تعالى وتمام قصدهم له أن يتوجهوا إليه توجها مستقيما ، فيتوجهون إلى العلو دون سائر الجهات ؛ لأنه الصراط المستقيم القريب ، وما سواه فيه من البعد والانحراف والطول ما فيه ، فمع القصد التام الذي هو حال الداعي العابد والسائر المضطر يمتنع أن يتوجه إليه إلا إلى العلو ، ويمتنع أن يتوجه إليه إلى جهة أخرى ، كما يمتنع أن يدلي بحبل يهبط عليه ، فهذا هذا، والله أعلم .

وأما من جهة الشريعة فإن الرسل صلوات الله عليهم بعثوا بتكميل الفطرة وتقريرها ، لا بتبديل الفطرة وتغييرها . قال ﷺ في الحديث المتفق عليه: « كل مولود يولد على الفطرة وأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء » أي مجتمعة الخلق سوية الأطراف ليس فيها نقص كجدع وغيره « هل ترون فيها من نقص ؟ هل تحسون فيها من جدعاء ؟ » .

وقال تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الروم ٣٠] . فجاءت الشريعة بالعبادة والدعاء بما يوافق الفطرة ، بخلاف ما عليه أهل الضلال من المشركين والصابئين المتفلسفة وغيرهم فإنهم غيَّروا الفطرة في العلم والإرادة جميعاً ، وخالفوا العقل والنقل ، كما قد بسطناه في غير هذا الموضع .

وقد ثبت في الصحيحين من غير وجه أن النبي ﷺ قال : « إذا قام أحدكم إلى الصلاة فلا يبصق قِبَل وجهه فإن الله قِبَل وجهه ، ولا عن يمينه فإن عن يمينه ملكاً ، ولكن ليبصق عن يساره أو تحت رجله » ، وفي رواية أنه أذن أن يبصق في ثوبه .

وفي حديث أبي رزين المشهور الذي رواه عن النبي ﷺ لما أخبر النبي ﷺ : « إنه ما من أحد إلا سيخلو به ربه » فقال له أبو رزين : كيف يسمعنا يا رسول الله وهو واحد ونحن جميع ؟ فقال : « سأنبئك بمثل ذلك في آلاء

الله ، هذا القمر آية من آيات الله كلكم يراه مخليا به ، فالله أكبر » ومن المعلوم أن من توجَّه إلى القمر وخاطبه إذا قدر أن يخاطبه لا يتوجه إليه إلا بوجهه مع كونه فوقه ؛ ومن الممتنع في الفطرة أن يستدبره ويخاطبه مع قصده التام له وإن كان ذلك ممكنا ، وإنما يفعل ذلك من ليس مقصوده مخاطبته كما يفعل من ليس مقصوده التوجه إلى شخص بخطاب فيعرض عنه بوجهه أو يخاطب غيره ليسمع هو الخطاب ، فأما مع زوال المانع فإنما يتوجه إليه ، فكذلك العبد إذا قام إلى الصلاة فإنه يستقبل ربه وهو فوقه فيدعوه من تلقائه لا من يمينه ولا من شماله ، ويدعوه من العلو لا من السفل ، كما إذا قدر أنه يخاطب القمر.

وقد ثبت عنه ﷺ في الصحيحين أنه قال : « لينتهين أقوام عن رفع أبصارهم في الصلاة أو لا ترجع إليهم أبصارهم » ، واتفق العلماء على أن رفْع المصلي بصره إلى السماء منهي عنه ، وروى أحمد عن محمد بن سيرين أن النبي ﷺ كان يرفع بصره في الصلاة إلى السماء حتى أنزل الله تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢ ﴾ [المؤمنون ١ ، ٢] . فكان بصره لا يجاوز موضع سجوده .

فهذا مما جاءت به الشريعة تكميلا للفطرة ؛ لأن الداعي السائل الذي يؤمر بالخشوع – وهو الذل والسكون – لا يناسب حاله أن ينظر إلى ناحية من يدعوه ويسأله ، بل يناسب حاله الإطراق وغض البصر أمامه . وليس نهي المصلي عن رفع بصره في الصلاة ردّاً على أهل الإثبات الذين يقولون :

إنه على العرش كما يظنه بعض جهَّال الجهمية ، فإن الجهمية عندهم لا فرق بين العرش وقعر البحر فالجميع سواء ، ولو كان كذلك لم ينه عن رفع البصر إلى جهة ويؤمر بردِّه إلى أخرى ؛ لأن هذه وهذه عند الجهمية سواء .

وأيضاً فلو كان الأمر كذلك لكان النهي عن رفع البصر شاملاً لجميع أحوال العبد . وقد قال تعالى : ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾ [البقرة ١٤٤] فليس العبد بمنهي عن رفع بصره مطلقاً ، وإنما نهي في الوقت الذي يؤمر فيه بالخشوع ؛ لأن خفض البصر من تمام الخشوع ، كما قال تعالى : ﴿خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ﴾ [القمر ٧] . وقال تعالى : ﴿وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ [الشورى ٤٥] .

وأيضاً فلو كان النهي عن رفع البصر إلى السماء وليس في السماء إله لكان لا فرق بين رفعه إلى السماء ورده إلى جميع الجهات .

ولو كان مقصوده أن ينهى الناس أن يعتقدوا أن الله في السماء أو يقصدوا بقلوبهم التوجه إلى العلو لبيَّن لهم ذلك كما بيَّن لهم سائر الأحكام ، فكيف وليس في كتاب الله ولا سنة رسوله ولا في قول سلف الأمة حرف واحد يذكر فيه أنه ليس الله فوق العرش ، أو أنه ليس فوق السماء ، أو أنه لا داخل العالم ولا خارجه ، ولا محايث له ، ولا مباين له ، أو أنه لا يقصد العبد إذا دعاه العلو دون سائر الجهات ؟ بل جميع ما يقوله الجهمية من النفي ويزعمون أنه الحق ليس معهم به حرف من كتاب الله ولا سنة رسوله ولا قول أحد من سلف الأمة وأئمتها ، بل الكتاب والسنة وأقوال السلف والأئمة مملوءة بما يدل على نقض قولهم ، وهم يقولون : إن ظاهر ذلك كفر فنؤول أو نفوض .

فعلى قولهم ليس في الكتاب والسنة وأقوال السلف والأئمة في هذا الباب إلا ما ظاهره كفر ، وليس فيها من الإيمان في هذا الباب شيء .

والسلب الذي يزعمون أنه الحق الذي يجب على المؤمن أو خواص المؤمنين اعتقاده عندهم ، لم ينطق به رسول ولا نبي ولا أحد من ورثة الأنبياء والمرسلين ، والذي نطقت به الأنبياء وورثتهم ليس عندهم هو الحق بل هو مخالف للحق في الظاهر ، بل حذاقهم يعلمون [1] أنه مخالف للحق في الظاهر والباطن ، لكن هؤلاء منهم من يزعم أن الأنبياء لم يمكنهم أن يخاطبوا الناس إلا بخلاف الحق الباطن فلبسوا أو كذبوا لمصلحة العامة .

فيقال لهم : فهلّا نطقوا بالباطن لخواصهم الأذكياء الفضلاء إن كان ما تزعمونه حقاً ! وقد علم أن خواص الرسل هم على الإثبات أيضاً ، وأنه لم ينطق بالنفي أحد منهم إلا أن يكذب على أحدهم كما يقال عن عمر : إن النبي ﷺ وأبا بكر كانا يتحدثان وكنت كالزنجي بينهما . وهذا مختلق باتفاق أهل العلم ، وكذلك ما نقل عن علي وأهل بيته أن عندهم علماً باطناً يختلف عن الظاهر الذي عند جمهور الأمة .

وقد ثبت في الصحاح وغيرها عن علي - رضي الله عنه - أنه لم يكن عندهم عن النبي ﷺ شيء ليس عند الناس ، ولا كتاب مكتوب إلا ما كان في الصحيفة ، وفيها الديات وفكاك الأسير ، وأن لا يقتل مسلم بكافر[2] .

---

(١) لعلّ أصل هذه الكلمة : يعتقدون ؛ لأنه ليس للجهمية علم بذلك ، بل ظنٌ ولّدته نظرياتهم الباطلة التي بيَّن الشيخ بطلانها في عدة مواضع من كتبه.

(٢) وتحريم المدينة كمكة ؛ وهذه الصحيفة كتب بها هذه المسائل التي سمعها من النبي ﷺ ، وكانت معلقة في سيفه ، وقد ذكر البخاري حديثه في عدة من كتبه ؛ أولها كتاب العلم.

ثم إنه من المعلوم أن من جعله الله هادياً مبلغاً بلسان عربي مبين إذا كان لا يتكلم أبداً قط إلا بما يخالف الحق الباطن الحقيقي فهو إلى الضلال والتدليس أقرب منه إلى الهدى والبيان ، وبسط الرد عليهم له موضع غير هذا.

والمقصود أن ما جاء عن النبي ﷺ في هذا الباب وغيره كله حق يصدق بعضه بعضاً ، وهو موافق لفطرة الخلائق وما جعل فيهم من العقول الصريحة، وليس العقل الصحيح ولا الفطرة المستقيمة بمعارضة النقل الثابت عن رسول الله ﷺ ، فإنما يظن تعارضهما من صدق بباطل من المنقول وفهم منه ما لم يدل عليه ، أو إذا اعتقد شيئاً ظنه من العقليات وهو من الجهليات ، أو من المكشوفات وهو من المكسوفات ، إذا كان ذلك معارضاً لمنقول صحيح ، وإلا عارض بالعقل الصريح ، أو الكشف الصحيح ، ما يظنه منقولاً عن النبي ﷺ ويكون كذبا عليه ، أو ما يظنه لفظاً دالاً على معنى ولا يكون دالاً عليه ، كما ذكروه في قوله ﷺ : «الحجر الأسود يمين الله في الأرض فمن صافحه وقبّله فكأنما صافح الله وقبّل يمينه» حيث ظنوا أن هذا وأمثاله محتاج إلى التأويل ، وهذا غلط منهم ؛ لو كان هذا اللفظ ثابتاً عن النبي ﷺ فإن هذا اللفظ صريح في أن الحجر الأسود ليس هو من صفات الله ؛ إذ قال : هو « يمين الله في الأرض » فتقييده بالأرض يدل على أنه ليس هو يده على الإطلاق فلا يكون اليد الحقيقية . وقوله : « فمن صافحه وقبّله فكأنما صافح الله وقبّل يمينه » صريح في أن مصافحه ومقبّله ليس مصافحاً لله ولا مقبِّلاً ليمينه ؛ لأن المشبه ليس هو المشبه به ، وقد أتى بقوله «فكأنما»

وهي صريحة في التشبيه ، وإذا كان اللفظ صريحاً في أنه جعله بمنزلة اليمين لا أنه نفس اليمين ، كان من اعتقد أن ظاهره أنه حقيقة اليمين ، قائلا للكذب المبين .

فهذا كله بتقدير أن يكون العرش كري الشكل سواء كان هو الفلك التاسع أو غير الفلك التاسع ؛ وقد تبين أن سطحه هو سقف المخلوقات ، وهو العالي عليها من جميع الجوانب ، وأنه لا يجوز أن يكون شيء مما في السماء والأرض فوقه ، وأن القاصد إلى ما فوق العرش بهذا التقدير إنما يقصد إلى العلو لا يجوز في الفطرة ولا في الشريعة مع تمام قصده أن يقصد جهة أخرى من جهاته الست ، بل هو أيضاً يستقبله بوجهه مع كونه أعلى منه كما ضربه النبي ﷺ من المثل بالقمر ، ولله المثل الأعلى ، وبيَّن أن مثل هذا إذا جاز في القمر وهو آية من آيات الله فالخالق أعلى وأعظم .

وأما إذا قدِّر أن العرش ليس كري الشكل بل هو فوق العالم من الجهة التي هي وجه ، وأنه فوق الأفلاك الكرية كما أن وجه الأرض الموضوع للأنام فوق نصف الأرض الكري ، أو غير ذلك من المقادير التي يقدر فيها أن العرش فوق ما سواه وليس كري الشكل ، فعلى كل تقدير لا يتوجه إلى الله إلا إلى العلو لا إلى غير ذلك من الجهات .

فقد ظهر أنه على كل تقدير لا يجوز أن يكون التوجه إلى الله إلا إلى العلو مع كونه على عرشه مبايناً لخلقه ، وسواء قدر مع ذلك أنه محيط بالمخلوقات كما يحيط بها إذا كانت في قبضته أو قدر مع ذلك أنه فوقها من غير أن يقبضها ويحيط بها فهو على التقديرين يكون فوقها مبايناً لها .

فقد تبين أنه على هذا التقدير في الخالق وهذا التقدير في العرش لا يلزم شيء من المحذور والتناقض ، وهذا يزيل كل شبهة . وإنما تنشأ الشبهة من اعتقادين فاسدين : (أحدهما) أن يظن أن العرش إذا كان كريا والله فوقه وجب أن يكون الله كريا ، ثم يعتقد أنه إذا كان كرياً فيصح التوجه إلى ما هو كري كالفلك التاسع من جميع الجهات .

وكل من هذين الاعتقادين خطأ وضلال ؛ فإن الله تعالى مع كونه فوق العرش ومع القول بأن العرش كري سواء كان هو التاسع أو غيره لا يجوز أن يظن أنه مشابه للأفلاك في أشكالها ، كما لا يجوز أن يظن أنه مشابه لها في أقدارها ، ولا في صفاتها ﴿ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ ﴾ [الإسراء ٤٣] .

بل قد تبين أنه أعظم وأكبر من أن تكون المخلوقات عنده بمنزلة داخل الفلك في الفلك وأنها أصغر عنده من الحمصة والفلفلة ونحو ذلك في يد أحدنا، فإذا كانت الحمصة أو الفلفلة بل الدرهم والدينار ، أو الكرة التي يلعب بها الصبيان ، ونحو ذلك في يد الإنسان أو تحته أو نحو ذلك ، هل يتصور عاقل إذا استشعر علو الإنسان على ذلك وإحاطته ، هل يكون الإنسان كالفلك؟ فالله – وله المثل الأعلى – أعظم من أن يظن ذلك به ، وإنما يظنه الذين لم يقدروا الله حق قدره ﴿ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [الزمر ٦٧] .

وكذلك اعتقادهم الثاني وهو أن ما كان فلكاً فإنه يصح التوجه إليه من الجهات الست خطأ باتفاق أهل العقل الذين يعلمون الهيئة وأهل العقل الذين يعلمون أن القصد الجازم يوجب فعل المقصود بحسب الإمكان .

فقد تبين أن كل واحدة من المقدمتين خطأ في العقل والشرع ، وأنه لا يجوز أن تتوجه القلوب إليه إلا إلى العلو لا إلى غيره من الجهات على كل تقدير يفرض من التقديرات ، سواء كان العرش هو الفلك التاسع أو غيره ، وسواء كان محيطاً بالفلك كري الشكل أو كان فوقه من غير أن يكون كرياً ، وسواء كان الخالق سبحانه محيطاً بالمخلوقات كما يحيط بها في قبضته أو كان فوقها من جهة العلو منها التي تلي رؤوسنا دون الجهة الأخرى .

فعلى أي تقدير فرض به كان كل من مقدمتي السؤال باطلة ، وكان الله تعالى إذا دعوناه إنما ندعوه بقصد العلو دون غيره كما فطرنا على ذلك ، وبهذا يظهر الجواب عن السؤال من وجوه متعددة ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

((يقول محمد رشيد آل رضا صاحب منار الإسلام))

رحم الله شيخ الإسلام ، وجزاه عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء ، فوالله ، إنه ما وصل إلينا من علم أحد منهم ما وصل إلينا من علمه في بيان حقيقة هذا الدين وحقية عقائده ، وموافقة العقل السليم وعلومه للنقل الصحيح من كتاب الله تعالى وسنة رسوله (ﷺ) بل لا نعرف أحداً منهم أوتي مثل ما أوتي من الجمع بين علوم النقل وعلوم العقل بأنواعها مع الاستدلال والتحقيق ، دون المحاكاة والتقليد ، وغرضه من هذا الكتاب أو

الفتوى تفنيد ما زعمه المتأولون للعرش بأنه الفلك التاسع ، من أن ذلك يعارض ما ثبت في الكتاب والسنة وأقوال أئمة الأمة من أن الله تعالى على عرشه فوق سماواته ، ومن أن الفطرة مؤيدة للشريعة في أن جهة العلو قبلة الدعاء ، فهو يثبت هذه الحقيقة على كل احتمال يمكن أن يكون عليه العرش ككونه كرياً أو قبة أو غير ذلك ، ولكنه لم يتكلم في حقيقة شكل العرش بأكثر مما ورد في كلام الله تعالى وكلام رسوله (ﷺ) ؛ لأنه من عالم الغيب الذي يجب الإيمان بما ورد فيه من النصوص بغير زيادة ولا نقصان ، ولا تأويل ولا تعطيل ، ولا تشبيه لله في علوه واستوائه عليه ولا تمثيل . ﴿ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴿٤﴾ ﴾ [الأحزاب ٤] .

فهـــرس

كتاب عرش الرحمن

استفتاء شيخ الإسلام في العرش ، وما قيل من كونه هو الفلك التاسع عند أهل الهيئة ، وكيف يتفق ذلك مع صفة العلو للّه والاستواء على العرش ؟ وما اتفقت عليه الملة من أن السماء هي قبلة الدعاء ، وأن الله تعالى لا يتوجه إليه إلا في جهة العلو .

(جواب شيخ الإسلام ، وهو في ثلاثة مقامات)

صفحة

(تم الفهرس ، ويليه القسم الأول من هذا المجموع)

(تنبيه في وقف هذا الكتاب)

إنَّ هذا المجموع من رسائل شيخ الإسلام وسائر ما طبع على نفقة صاحب الجلالة عبد العزيز الأول ملك الحجاز ونجد وملحقاتها من كتب التفسير والتوحيد والفقه والحديث وكتب علماء نجد ورسائلهم وغيرها وقف لله تعالى ؛ لا يجوز بيعه ، بل يجب أن يبذل لمن ينتفع به بغير ثمن كله .